

## كما لو أنه لم يفارق حديقته

## عارف الرئيس الساحر الذي يضع ضحكته على الجرح



فاروق يوسف

حديقته النضرة في عاليه، البلدة الجبلية التي شهدت ولادته يمكنها أن تكون المزار المثالي للتعرف عليه، فنانا وإنسانا، هو في حقيقته مزيج ثقافات وعادات وأمزجة ومدن تنقل بينها بخفة طائر أسطوري، كانت عيناه تهبان كل ما يراه قوة الجمال المترفع والوحيد.

كانت غزارة نتاجه الفني وتنوع أساليبه في الرسم والنحت قد جعلتاه عصيا على التصنيف النقدي، ففي كل مرحلة من مراحل سيرته الفنية كان فنانا جديدا، غير ما كانه من قبل وما سيكونه في مستقبل أيامه الخاصة بشعوره العميق بالأمل، وهو الشعور الذي استخلصه من ثقة مطلقة بالفن، باعتباره أرقى اللغات التي تكسب الكائن البشري هيئة الرسول المبشر بالقيم الإنسانية الخالدة.

عارف الرئيس يمتزج في فنه الماضي بالحاضر، فلا تقع حدائته على معنى المعاصرة المباشر، كما تحده المعاجم الفنية المتاحة. وهو ما جعله في أحيان كثيرة قادرا على التماهي مع فكرة إقامته خارج الزمن، كائنا يقول ما لا يفهمه الآخرون.

“

غير أنه أيضا كان يقيم خارج المكان كما نعرفه، لكثرة الأماكن التي أقام فيها وتداخلها وتوزعها بين حالاته العقلية ونزعاته العاطفية، الأمر الذي يسر عليه أن يكون أفريقيا في باريس وفرنسيا في بيروت ولبنانيا في المكسيك.

ضحك ابن الجبل حين أخبرته بحيرتي وارتيابي حين أحاول أن أقبض عليه في واحدة من شخصياته المختلفة وكنا نجلس في مقهى على البحر بطنجة عام 1990. قال "أنا كل هذا، إذا لم يكن هناك المزيد" رسمني يومها كعادته على ورقة عادية، عثر عليها بالصدفة وذيّل تلك الرسمة بتوقيعه، وصار ينظر إليها بمتعة كما لو أنه أنجز عملا فنيا عظيما. وهو ما جعلني أقع يومها على شيء من سحر شخصيته.

## لبنانه الذي هو الكون

هل كان عارف الرئيس (1928 - 2005) فنانا لبنانيا خالصا؛ ولكن ما معنى أن يكون الفنان لبنانيا خالصا؛ بالنسبة إلى الرئيس جرى الأمر كما لو أنه مزحة لا تقف عند حدود معانيها المباشرة. فوالده التاجر الذي ألقى به نهاية أربعينات القرن العشرين في بحيرات تنقاسم السباحة فيها نساء جميلات وتماسيح تبدو على درجة عالية من التهذيب كان قد فتح أمامه أبواب التجريب الحياتي ومن ثمة الفني على مصاربعها. لقد اكتشف أن هناك جمالا خارقا منذورا للربع. ليس هو الجمال المتشنج الذي التزمه السوريينون مبدأ لهم؛ كانت سريلية الرئيس مستلهمة من الواقع، كذلك حروفه في مرحلة متأخرة من حياته، جسديتها منحوتاته في جدة وتبوك السعوديتين. لقد عاش الرئيس حياته حالما، تمر به

“

عاش الرئيس حياته حالما، تمر به به الوقائع اليومية ليلتقط منها المفردات التي تعينه على أن يستمر في شقائه رساما ونحاتا حالما

“

الوقائع اليومية ليلتقط منها المفردات التي تعينه على أن يستمر في شقائه رساما ونحاتا حالما. فحين ذهب إلى باريس، منتصف خمسينات القرن الماضي درس التمثيل الإيمائي إلى جانب الرسم. فكانت تلك الخطوة بمثابة تكريس لما عاشه من انفعالات ساخنة في السنغال وهو يرى الفن ممتزجا بحركة الناس العاديين من خلال الدين. حين عاد إلى لبنان عام 1957 حالفه الحظ في أن يحصل بعد سنتين على منحة

لدراسة النحت في إيطاليا. يومها جرى لقاؤه العظيم بجياكوموتي وعدد من نحائي أوروبا الكبار. ولأن روحه القلقة لم تكن تسمح له بالمكوث في محطة بعينها فقد كان لقاؤه في روما بعدد من الفنانين القلقين مثله مناسبة للعب بالنحت من جهة كونه ممارسة تجريبية هي أقرب إلى المغامرة منها إلى الدرس الفني المنضبط. كان

الرئيس بالنسبة إلى الآخرين هو النموذج الطراز والنضر لامتزاج الشرق المتوسطي بشمسه بمجاهيل أفريقيا الغامضة بعتمات معابدها. كان كائنا حيا يحتضن سحر تعاويذ ملوك أفريقيا بشفاافية شمس المتوسط التي حرص على أن يحملها معه أينما حل.

لم يكن عارف إلا ذاته المتمردة التي كانت حريصة على أن تقوم بنزعتها اليومية بين متاهات الجمال. كان جميلا في كل ما يفعل فكان ضروريا أن يحبه الجمال.

”ستري كيف سيستقبلنا

الرئيس سنغور“ قال

لي وهو يمسك بيدي

ليقودني إلى فندق

المنزه بطنجة. حتى

تلك اللحظة كنت

محرجا إزاء

المزحة التي

ورطني فيها

”

الرئيس ظل طوال حياته يراهن على الصدق معيارا لصلته بالآخرين. لم يمر بالعالم باعتباره سائحا عابرا، بل كان يصير على أن يكون ابن الجرح المفتوح بين ضفتين

“

واحد من أكبر الضاحكين الذين قابلتهم في حياتي، غير أن العناق الأسطوري بين صديقين هما الرئيس وسنغور الذي لم يكن رئيسا يومها صنع مني شاهدا على براءة الطفل الأسطوري الذي تعبت في المقهى من تتبع حكاياته عن عالم سحري عاشه شخصيا، فيما كنت اظنه متخيلا. كان الرئيس واقعا في أقصى درجات خياله ولم يكن يجروء على الكذب حتى وإن تعلق الأمر بالجمال. يومها لفتني الرئيس درسا مزدوجا في الجمال والأخلاق معا.

لم يكن الرئيس صانع فن وحسب بل كان صنيعا إنسانيا فريدا من نوعه.

## الزهور النائمة على الحجر

”ما من بلد في العالم مثل لبنان“ جملة همس بها الرئيس لي بتواضع كما لو أنه كان يبوب بسر. حديقته في عاليه تؤكد صحة حدسه. تشبيهه، ربما من جهة تنوع نباتاتها، غير أنها أيضا تذكر به باعتباره راعيا لكائنات (منحوتاته) لا يزال في إمكانها أن تلهم الجمال. لبنانه الكوني مثلما حلم به تجسد في حديقة تحمل اسمه في البلدة التي ولد فيها ومات بعد أن جال بين القارات. لو أنه لا يزال حيا لكان قد حدثني وهو يمسك بيدي كما كان يفعل في طنجة عن علاقة الزهور بالحجر. بالنسبة إلى شخص مثل عارف فإن الوفاء ضروري لكي يشعر المرء بإنسانيته. كانت تنويعاته على قماشة اللوحة وعلى الحجر واحدة. كلها تنبعث من مسعى واحد: أن يكون الصدق قاسما مشتركا بين الواقع والخيال. هذا فنان لا يكذب، بل إنه ظل طوال حياته يراهن على الصدق معيارا لصلته بالآخرين. لم يمر بالعالم باعتباره سائحا عابرا، بل كان يصير على أن

يكون ابن الجرح المفتوح بين ضفتين. كان عليه أن يكون سوريايا فينسى الواقع. كان عليه أن يكون تجريديا فينسى أن يكون تشخيصيا. كان عليه أن يكون بدائيا بسحر رؤاه الأفريقية فينسى حياته في باريس. ولكنه رغب في أن يكون كل ما عاشه، كل ما راه، فكانت تجاربه الفنية بتنوع أساليبها وموادها وتقنياتها مرآة لحياته.

## حياة على هيئة شذرات

عارف الرئيس المسرع دائما، عاش حياة صاخبة. كان صوته الجبلي، حركات يديه المنفلتتين، نظراته التي هي أشبه بالضربات، لغته المقتضبة التي لا تخلو من المزاج هي أصابعه التي تمتد للعبث في كل ما يراه الآخرون مسلما به. وهو ما حرص الرئيس على أن يبقى شرارته ساخنة من خلال كتابيه ”الأيام الرمادية: ألوان، أحرف، صور“ و”رحلة داخل الذات“ وهو عبارة عن حوارات أجرتها الصحافة معه في مختلف مراحل مسيرته الفنية. ولأنه يعرف أن سيرته الفنية والحياتية كانت أصعب من أن تجمع في بوتقة واحدة فقد قرر أن يكتبها مفككة على هيئة شذرات خاطفة. وهو ما نجح فيه. ليس هناك ما يتعب. أينما مد الرئيس يده فإنها كانت تقع على لقي لا يزال معدنها لامعا. فالرجل عاش حياته كاملة، لم يكن ينقصه شيء، وهو ما جعلني أضمه إلى قلة من الفنانين السعداء الذين نذروا فنهم بل وأنفسهم لحب الآخر العابر للقرارات واللغات وللأزمنة.

كان عارف الرئيس سيد موقفه المتشدد من العالم مثلما كان سيد ضحكته.